

مركز بيروت لدراسات الشرق الأوسط

الفلستينيون الحمر

إعداد: كميل أبو حنيش*

مركز بيروت لدراسات الشرق الأوسط

بيروت - لبنان - 2018

حقوق النشر محفوظة للمركز

شكّلت المرجعية الدينية التوراتية أساساً في ممارسات العنف والإبادة والتطهير العرقي ليس "إسرائيل" فحسب وإنما للولايات المتحدة التي قامت على جماجم عشرات الملايين من السكان الأصليين، الذين أُطلق عليهم تسمية الهنود الحمر.

لقد وُلدت الحركة الصهيونية من رحم المنظومة الاستعمارية العالمية، ونشأت في أحضانها، حيث رعت المنظومة الاستعمارية المتمثلة في بريطانيا المشروع الصهيوني الاستعماري في فلسطين وسانده في تأسيس ما بات يُعرف بدولة "إسرائيل" على أنقاض الشعب الفلسطيني، حيث تصدر المشروع الصهيوني الحق التاريخي "إسرائيل" في فلسطين.

*كاتب وروائي وأسير فلسطيني.

ولا تزال دولة الكيان بعد سبعين عاماً على إنشائها تشن الحروب العدوانية على شعوب المنطقة برمتها، أما عن العلاقة الوثيقة التي تربط "إسرائيل" بالولايات المتحدة. فإلى جانب أنها علاقات محكومة بشبكة معقدة من المصالح السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والعسكرية والأمنية بوصف "إسرائيل" دولة وظيفية قامت في الأصل بتأدية دورها في خدمة المصالح الاستعمارية عموماً والأميركية على وجه التحديد طوال أكثر من نصف قرن، وإلى جانب تأثير اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة على صناعات القرار في الإدارات الأميركية المتعاقبة لصالح "إسرائيل" فضلاً عن تأثير ما بات يُعرف بالصهيونية في دعم "إسرائيل". إلا أن ثمة أسباباً أخرى تعمق العلاقة الأميركية-الإسرائيلية من حيث التشابه في تأسيس الدولتين والانطلاق من ذات المرجعية الأيديولوجية التي يمكننا أن نطلق عليها "الأيديولوجية التوراتية" وبوصفها كيانين استيطانيين استعماريين قاما على أساس الاستيلاء على أرض الغير وإبادة السكان الأصليين، وممارستها التطهير العرقي وطمس تاريخ وثقافة البلاد المستعمرة. إن هذه الأيديولوجية كانت بمثابة المياه الآسنة التي شربت منها جذور هاتين الدولتين، فالولايات المتحدة منذ تأسيسها تمثلت بالنموذج

التوراتي ووصفت نفسها بأنها " إسرائيل عصرها " وهي " إسرائيل المتخيلة"، أما " إسرائيل " القائمة على أرض فلسطين، فقد اعتبرت نفسها أنها أيضاً امتداد " لإسرائيل " المتخيلة والأسطورية القديمة. سنحاول إجراء مقارنة تاريخية لكلا الكيانين وأوجه التشابه بينهما ارتباطاً بالأيدولوجية التوراتية، ومحاولة استشراف المستقبل الفلسطيني في ضوء الهجمة الصهيونية العدوانية المستمرة ليس على فلسطين فحسب، وإنما على شعوب المنطقة برمتها.

• الأيدولوجية التوراتية المشتركة للولايات المتحدة و"إسرائيل":

تتضمن التوراة اليهودية 39 سفرًا تروي تاريخ اليهودية المتخيلة بدءاً من سفر التكوين وانتهاءً بسفر الملاخي، حيث استمرت عملية كتابة هذه الأسفار مدة تريبو ألف عام، وهذه الأسفار معروفة باختصار (التناخ) وهي تعني الكتاب المقدس اليهودي (التوراة) حيث يرمز الحرف الأول إلى الأسفار الخمسة الأولى التي تعرف بأسفار موسى وهي سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية، أما الحرف الثاني (نفيم) تروي أسفار (يشوع وصموئيل وعزرا وأيوب وآرميا..الخ). والحرث الثالث الخاء (وهي أسفار الابتهاالات التي اتبعها الحاخامات في أسفار المزامير والابتهاال والانشاد...الخ) وإلى جانب التناخ يقع في أكثر من عشرين مجلداً أبرزها (الفار، العارور، الشلحاح) وهذه هي الكتب الدينية اليهودية تشرح باستفاضة أسس وجوهر اليهودية وتصف اليهود بوصفه شعباً مقدساً ومختاراً للإله " يهوا"، والتناخ لدى المسيحية في العهد القديم بينما الأنجيل المسيحية هي العهد الجديد.

إن التناخ بما تضمنه من أسفار لا يقل أهمية عن الأنجيل الأربعة قبل المسيحية، وبهذا فإن ما نسميه " الأيدولوجيا التوراتية" هي الوعاء التي استمدت منها الممارسات والفظائع التي سنسلط عليها بعد قليل والتي قامت بها الجماعات الاستيطانية في القارتين الأمريكيتين، ويمكننا تلخيص هذه الأيدولوجيا التوراتية بالأسس التالية:

(1) أرض الميعاد التي منحها " الاله يهوى " إلى اليهود حسب المزاعم التوراتية، ويبدأ هذا العدو في سفر التكوين من جانب يهوى الذي قال لابراهيم (أُعْطِيَ لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلَهُهُمْ » (1) وبعيد تأكيد هذا الوعد لإسحق ومن ثم ليعقوب، وفي ذات سفر التكوين يؤكد ليعقوب (الأرض التي أنت متجه عليها أعطيك إياها نفسك ولنفسك) (2)، ويؤكد مرة أخرى ليعقوب (ندعو لنفسك من بعدك هذه الأرض) (3)، وتتواصل عملية الوعد الإلهي أكثر من مرة في مختلف أسفار التوراة بعد خروج القبائل اليهودية من مصر يعيد الاله " يهوى " التأكيد على الوعد وهذه المرة لموسى (إني قد رأيتُ مَدَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخَّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ، فَزَلْتُ لِأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ، وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَّاسِعَةٍ، إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحَوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ) (4)، ويكرر مرة أخرى لموسى (متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين كما حلف لك ولآبائك، وأعطاك إياها) (5)، ويكررها مرة أخرى لموسى (اذْهَبِ اصْعَدْ مِنْ هُنَا أَنْتَ وَالشَّعْبُ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حَلَفْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا) (6)، ويكررها مرة أخرى لموسى (أَرْسِلْ رِجَالًا لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. رَجُلًا وَاحِدًا لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ آبَائِهِ تُرْسِلُونَ. كُلُّ وَاحِدٍ رَئِيسٌ فِيهِمْ) (7).

إذن الأساس الأول لهذه الأيديولوجيا هي الأرض الموعودة وأرض الميعاد التي توعد بها الرب " يهوى " قبائل " بني إسرائيل " بالاستحواذ على أرض كنعان.

(2) شعب الله المختار، أما الأساس الثاني لهذه الأيديولوجيا هي صفة "الشعب المختار" اليهودي باعتبارهم شعب مقدس، وسنجد هذه النصوص التوراتية التي تضي قداسة على

1- العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح 17.
2- العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح 28.
3- العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح 35.
4- العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح 3.
5- العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح 13.
6- العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح 33.
7- نفس المصدر، سفر العدد، الاصحاح 13.

الجماعة اليهودية وحدها دون بقية الشعوب (أنا الرب الذي يقدسكم) (8) وأيضاً (أنا الرب أقدسكم) (9) وأيضاً (أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب) (10) وأيضاً (وتكونون لي قديسين) (11) (وأنتم تكونون لي شعباً) (12) ، و (أنتم فوق جميع الشعوب) (13) وأيضاً (لَأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ. إِيَّاكَ قَدْ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهَكَ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَحْصَى مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ) (14).

وحسب هذا الفهم فإن القداسة تقتضي الاختيار بمعنى أن " إسرائيل " مقدسة، ولهذا فقد اختارها الاله لتكون شعباً مختاراً لهم.

3) لعنة كنعان، وفيما أن اليهود شعباً مقدساً فإن ذلك يقتضي أن يكون بقية الشعوب ملعونة، وقد كرست النصوص التوراتية حيزاً من صب اللعنة والكرهية على الشعب الكنعاني. أما سبب هذه اللعنة فيعود إلى أسباب ساذجة وخرافية، حيث تروي النصوص التوراتية الحادثة التي وقعت في سفينة نوح أثناء الطوفان فبينما كان نوح نائماً في السفينة (أَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخُوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافِثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَى إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَ عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: "مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِإِخْوَتِهِ". وَقَالَ: "مُبَارَكُ الرَّبِّ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللَّهُ لِيَاْفِثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ" (15) .

4) رب الجنود والدعوة لإبادة الشعوب. وتغص النصوص التوراتية بالروايات المرعبة من الحروب والإبادة الجماعية التي شنها الشعب المختار بتوجيهات من الاله " يهوى " يجري

8- نفس المصدر، سفر الخروج، الاصحاح 31

9- نفس المصدر، سفر اللاويين، الاصحاح 20

10- نفس المصدر، سفر اللاويين، الاصحاح 20

11- نفس المصدر، سفر اللاويين، الاصحاح 20

12- نفس المصدر، سفر اللاويين، الاصحاح 26

13- نفس المصدر، سفر التسمية، الاصحاح 10

14- نفس المصدر، سفر التسمية، الاصحاح 7

15- نفس المصدر، سفر التكوين، الاصحاح 9

وصفه بأنه رب الجنود (الرب هو رب الحرب) (16)، وهكذا يتوج سفر الخروج الرب بوصفه الهاً للحرب يرعي قبائل بني " إسرائيل " ومحارباً نيابةً عنهم محرصاً هذه القبائل على الحرب، والاله يهوى (يَسْمَعُ الشُّعُوبُ فَيَرْتَعِدُونَ. تَأْخُذُ الرَّعْدَةُ سُكَّانَ فِلِسْطِينَ، حِينَئِذٍ يَنْدَهِسُ أَمْرًا أَدُومَ. أَقْوِيَاءُ مُوَابَ تَأْخُذُهُمُ الرَّجْفَةُ. يَذُوبُ جَمِيعُ سُكَّانِ كَنْعَانَ، تَقَعُ عَلَيْهِمُ الْهَيْبَةُ وَالرُّعْبُ. بَعْظَمَةُ ذِرَاعِكَ يَصْمُتُونَ كَالْحَجَرِ حَتَّى يَعْبُرَ شَعْبُكَ يَا رَبُّ. حَتَّى يَعْبُرَ الشَّعْبُ الَّذِي اقْتَنَيْتَهُ، تَجِيءُ بِهِمْ وَتَغْرِسُهُمْ فِي جَبَلِ مِيرَاتِكَ، الْمَكَانِ الَّذِي صَنَعْتَهُ يَا رَبُّ لِسُكْنِكَ الْمَقْدِسِ الَّذِي هَيَّأْتَهُ يَدَاكَ يَا رَبُّ) (17).

ثم يواصل إله الحرب التوراتي حثه على الحرب (فَأِنِّي أَطْرُدُ الْأُمَّمَ مِنْ قُدَّامِكَ وَأُوسِعُ تَخُومَكَ، وَلَا يَسْتَهِي أَحَدٌ أَرْضَكَ حِينَ تَصْعَدُ لِتُظَهَرَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلَهِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ) (18)، ثم يبدأ بتهيئة الأجداد لخوض الحرب (انكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون سكان الأرض من أمامكم وتمحون كل تصاويرهم وتبعدون أصنامهم المسبوكة وتخربون كل مرتفعاتهم وتملكون الأرض وتسكنون فيها لأنني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي انتم ساكنون فيها) (19). إذن هي دعوة للإبادة والتطهير العرقي الشامل (وتطردون أعدائكم فيسقطون أمامكم) (20). (وَأَمَّا مُدُنُ هَوْلَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَصِيْبًا فَلَا تَسْتَبِقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا) (21)) وبيدهم ويذلهم أمامك وتطردهم سريعاً) (22).

16- نفس المصدر، سفر الخروج، الإصحاح 15

17- نفس المصدر، سفر الخروج، الإصحاح 15

18- نفس المصدر، سفر الخروج، الإصحاح 34

19- نفس المصدر، سفر العدد، الإصحاح 33

20- نفس المصدر، سفر اللاويين، الإصحاح 26

21- نفس المصدر، سفر التسمية، الإصحاح 20

22- نفس المصدر، سفر التسوية، الإصحاح 9

وبعد الإبادة الشاملة يدعوهم الرب للجنود إلى نشر أي ثأر (وتمحون اسمهم من ذلك المكان)
(23) ، ومن ثم يدعوهم لعدم السماح لهم بالسكن في الأرض الموعودة (لا يسكنون في أرضك
لأنهم يجعلوك تخطئ) (24).

وهكذا إن توجيهاً رب الجنود لتهيئة شعب الله المختار للاستيلاء على الأرض بعد إبادتهم
لها ومحو ماضيهم من المكان، وهذه هي النصوص هي التي هيأت إلى إشاعة الإبادة
الأسطورية التي يرويها سفر يشوع.

(5) سفر يشوع نموذجاً وملائماً، أما الأساس الخامس لهذه الأيديولوجيا فيتمثل بسفر يشوع
التوراتي، وهو يروي المذابح والإبادة الأسطورية التي ارتكبتها جنود يشوع ضد المدن الكنعانية
بمباركة وتحريض رب الجنود التوراتي والتعصب لشعبه، ويروي هذا السفر بداية حصار مدينة
أريحا الكنعانية ومن ثم اقتحامها وإبادة بشرها (وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ
طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ بِحَدِّ السَّيْفِ) (25) ، ولم ينجوا من هذه المذبحة الفظيعة
سوى العاهرات والسحاقيات التي خبئت يشوع بن نون لدى دخوله المدينة، ولكن رب الجنود لم
يكتفِ بهذه المذبحة بل راح يحرض يشوع على شن المزيد من حروب الإبادة (لَا تَخَفْ وَلَا
تَرْتَعِبْ. خُذْ مَعَكَ جَمِيعَ رِجَالِ الْحَرْبِ، وَقُمْ اصْعَدْ إِلَى عَايَ. انظُرْ. قَدْ دَفَعْتُ بِيَدِكَ مَلِكَ عَايَ
وَشَعْبَهُ وَمَدِينَتَهُ وَأَرْضَهُ، فَتَفَعَّلْ بِعَايَ وَمَلِكِهَا كَمَا فَعَلْتَ بِأَرِيحَا وَمَلِكِهَا. غَيْرَ أَنَّ غَنِيمَتَهَا
وَبَهَائِمَهَا تَنْهَبُونَهَا لِأَنْفُسِكُمْ. اجْعَلْ كَمِينًا لِلْمَدِينَةِ مِنْ وَرَائِهَا) (26) (وعاي) هي إحدى المدن
الكنعانية التي جرى حسبما يروج سفر يشوع (وَضَرَبُوهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ شَارِدٌ وَلَا مُنْقَلِتٌ،
وَكَانَ لَمَّا انْتَهَى إِسْرَائِيلُ مِنْ قَتْلِ جَمِيعِ سُكَّانِ عَايَ فِي الْحَقْلِ فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ لَحِقُوهُمْ وَسَقَطُوا
جَمِيعًا بِحَدِّ السَّيْفِ حَتَّى فَنُوا، أَنَّ جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ رَجَعَ إِلَى عَايَ وَضَرَبُوهَا بِحَدِّ السَّيْفِ) (27)

23- نفس المصدر، سفر التسمية، الاصحاح 12

24- نفس المصدر، سفر الخروج، الاصحاح 23

25- نفس المصدر، سفر يشوع، الاصحاح 26

26- نفس المصدر، سفر يشوع، الاصحاح 8

27- نفس المصدر، سفر يشوع، الاصحاح 8

ويواصل السفر سرد عشرات المذابح المرتكبة بحق المدن والبلدات الكنعانية، أما بقية أسفار التوراة فتتغزل على ذات المنوال باستحضار هذه المذابح والتحريض الدائم من جانب رب الجنود بارتكاب المزيد منها.

هذه هي الأسس الخمسة للأيديولوجيا التوراتية، وهذا هو الإطار الفكري الذي تمثله المستعمرون البيض في القارتين الأمريكيتين لاسيما في القارة الشمالية وتحديداً فيما بات يُعرف بالولايات المتحدة، وكذلك ما تمثله الحركة الصهيونية وهي تنشئ دولتها الأسطورية المتخيلة في نصوص التوراة.

• المعنى التوراتي لأمريكا:

عندما أبحرت سفن كولومبوس نحو الغرب لم يكن يدور في خله أنه متوجه إلى الهند ولم يكن يعرف أنه سيكتشف عالماً جديداً يسكنه ومساحاته الشاسعة، ولذلك جاءت تسمية السكان الأصليين للعالم الجديد بالهنود الحمر ظناً من " كولمبوس " وحملته أنهم قد وصلوا إلى الهند، أما المكتشف الحقيقي للقارتين بعد أن أغرى الرحالة للقيام برحلات أوسع هو المكتشف الإيطالي "أمريكو فسبوتشي" الذي اكتشف عملياً القارتين وهو من فتح شهية دول أوروبا في ذلك الحين كبريطانيا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال بالمباشرة باستعمار هذه البلاد.

لقد سألت لعاب الرجل الأبيض على هذه البلاد التي لا تدر لبناً وعسلاً فحسب إنما تدر موارد طبيعية ومحاصيل زراعية وخيرات كثيرة، أما السكان الأصليون الذين باتوا يعرفون بالهنود الحمر فقد كان عددهم يقدر بعشرات الملايين فعشية وصول " كولومبوس " كان يقدر عددهم بـ 112 مليون هندي يتألفون من 400 أمة وشعباً على امتداد القارتين، وهذه الشعوب ليست بدائية ومتخلفة كما جرى تصويرها، وإنما نجحت في إقامة حضارات وثقافات وكان لها معتقدات دينية وأنظمة دولة، رغم أنها كانت متأخرة شيئاً عن حضارات العالم القديم (آسيا وأوروبا وأفريقيا). فقد كان وصم هذه الشعوب بالبدائية والتخلف مقدمة للبدء في إبادتها والاستيلاء على بلادهم، وقد تسلح المستعمرون

البيض بأيدولوجيا دينية مستمدة من العهد القديم لتبرير إبادتهم لهذه الشعوب، لا سيما في المناطق التي باتت تعرف بالولايات المتحدة الأمريكية (28).

عندما وصلت جماعة من المهاجرين المتزمتين إلى العالم الجديد اعتبروا أن هدفهم هو إقامة أرض ميعاد جديدة، ثم استقر هؤلاء المستعمرون الذين سيقم أبنائهم فيما بعد الولايات المتحدة في بلد لم يكن لهم فيها أمل وتاريخ واستندوا إلى الأسطورة التالية (أن رحيلهم من إنجلترا خروجاً توراتياً جديداً⁽²⁹⁾). وهو يشبه خروج القبائل الإسرائيلية من مصر بعد طردها من الفرعون والتوجه إلى أرض الميعاد.

وقد تجلت هذه الأيدولوجيا والعقيدة الأسطورية قوية واضحة لدى الطهوريين المهاجرين إلى أمريكا الذين اندمجوا وتوحدوا بالعبريين التوراتيين في (المنفى): لقد تحرروا من عبودية فرعون (جاك الأول)، وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) ليصلوا إلى أرض كنعان الموعودة (أمريكا)⁽³⁰⁾.

ثم راحوا يستوحون ما قام به يشوع من (إبادات مقدسة) في العهد القديم أثناء مطاردتهم الهنود الحمر بغية الاستيلاء على أراضي أمريكا. كتب "ترمان نلسن" وهو واحد منهم يقول (من البديهي الواضح أن الله قد دعا المستعمرين إلى الحرب. وقد لجأ الهنود وأحلافهم من القبائل إلى التجمع وحمل السلاح لارتكاب الشرور كما فعلت في أغلب الظن القبائل القديمة من العمالقة والفلسطينيين الذين تحالفوا مع غيرهم في مواجهة إسرائيل⁽³¹⁾)

لقد ظهرت إمكانية الحصول على ملكية أراضي شاسعة بالسطو والنهب والإبادة لاستملاكها بعملية تجديد اكتشاف أرض الميعاد، ودخولها كنوع من تنفيذ الوعد الإلهي بأرض الميعاد وي طرح ذلك، تمويه ذاتي يخضع لأخلاقية دينية مزعومة قائمة، وعلى اعتبار أن سكان أمريكا الأصليين ممالك وكنعانيين وغيرهم ممن يتيح النص التوراتي قضم أراضيهم ويجعل الإبادة بحقهم ضريبة دينية

28- منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية، دار رياض الريس للكتب والنشر، طبعة 1، حزيران، 2002.

29- روجيه غارودي، الإرهاب الغربي، الجزء الأول، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 2001، ص 67.

30- روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية، ط1، 1991، ص 144.

31- نفس المصدر السابق، ص 144

فرض للإله يهوى، العودة إلى مصادر التوراة دوراً وظيفياً في تبرير احتلال وإبادة سكان أمريكا الأصليين بهدف الاستيطان (32).

وكما سنرى سيجري استخدام كامل الذخيرة التوراتية التي أسميناها (الأيدولوجيا التوراتية) بما فيها مفهوم العناية الإلهية التي رافقت الولايات المتحدة منذ إنشائها أول مستوطنة فيها وسيكون الإله يهوى وليس الإله يشوع المسيح هو الملمح بالنسبة للمستوطنين الإنجليز.

يعتبر يهوى في المفهوم الوثني القبلي للإسرائيليين الأوائل إلهاً غيوراً ويمنح النصر للقبائل التي يحميها، والتي جعل منها الشعب المختار، وفرض عليها حق بل واجب إبادة الشعوب التي لا تشاركهم الإيمان به (33).

لقد استخدم مصطلح الشعب المختار بكثافة من الكتاب والوعاظ والمستعمرين في القرن السابع عشر، وتضمنت هذه الرؤية لشعب الله المختار تبرير الإبادة والقتل ضد السكان الأصليين (34).

ويعتبر روجيه غارودي " أنها أكثر الأفكار دموية في التاريخ فقد أوحى بعد تطعيمها بمعارك يشوع الأسطورية البيوريتانيين الانجليز الذين وصلوا أمريكا لاغتصاب الهنود وجعلت أحد الباباوات يتساءل " ماذا كان الهنود يتمتعون كالبيض " ثم قسم أراضيهم بين أسبانيا والبرتغال فهذه الفكرة إذن أساس الكثير من أنماط الاستعمار (35).

إن ثقافة الإبادات التي عاشت عليها فكرة أمريكا المستمدة من فكرة (إسرائيل " التاريخية: الاستيلاء على أرض الغير واستبدال شعب بشعب آخر وثقافة وتاريخ بثقافة وتاريخ، وفي إطار هذه الفكرة انتحل الغزاة الإنجليز أنفسهم صفة الشعب المختار واعتبروا أنفسهم بذلك استثناءً بإرادة الله

32- عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، المجلد الثالث، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015- ص 258.

33- الإرهاب الغربي، مصدر سابق، ص 66.

34- الدين والعلمانية، مصدر سبق ذكره، ص 380.

35- الإرهاب الغربي، مصدر سابق، ص 67.

يختصون وحدهم بتنفيذها ولا يخضع معاملته الشعوب الأخرى للقوانين الأخلاقية أو الإنسانية، أو المبادئ الفعلية بل يحكمها ما نفذه العبرانيون من أساطير وتجربتهم مع الكنعانيين (36).

ويرى الباحث المختص في شئون الهنود الحمر (منير العكش) أن فكرة أمريكا هي الترجمة الإنجليزية لفكرة "إسرائيل" الأسطورية كما تبناها الغزاة الانجليز الأوائل، وهي تقوم على ثلاثة عناصر:

(1) احتلال أرض الغير.

(2) استبدال سكانها بسكان غرباء.

(3) استبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم.

وهذا الفكرة هي التي أرسى الثوابت التاريخية الخمسة التي رافقت كل تاريخ أمريكا ماضياً وحاضراً (37):

(1) المعنى الإسرائيلي لأمريكا.

(2) عقيدة الاختيار الإلهي، والمضمون العرقي والثقافي.

(3) الدور الخلاصي للعالمي.

(4) نظرية التوسع اللانهائي.

(5) حق التضحية بالآخر.

ويشرح العكش مفهومه للمعنى الإسرائيلي لأمريكا بالتالي:

(1) إن احتلال أرض الغير واستبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة وتاريخ بتاريخ عمل مقدس أمر به الرب.

36- أمريكا والإبادات الجنسية، مصدر سبق ذكره، ص 12.

37- نفس المصدر السابق، ص 108.

(2) إن فكرة الرب تجسد مشيئة الله في أرض كنعان الجديدة (أمريكا) وأهلها وثقافتها، كما جسدت فكرة "إسرائيل" مشيئة الله في أرض كنعان القديمة وأهلها وثقافتها.

(3) المستعمرون الإنجليز كالأسرائيليين التاريخيين استثناء وجودي يحتكر لأهله الاضطلاع بإرادة الله، ويختص وحدهم بتنفيذها.

(4) إن معاملة السكان الأصليين لا تخضع لقوانين أخلاقية أو إنسانية أو مبادئ عقلية بل تحكمها تجربة "إسرائيل" مع الكنعانيين وهذا ما جعل المستعمرين الإنجليز الذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار يطلقون اسم الكنعانيين على كل الشعوب التي أبادوها.

(5) إن نجاح فكرة أمريكا في العالم الجديد يشكّل مثلاً طيباً يمكن تكراره حيثما شاءها شعب الله (38).

ويخلص العكس الفكرة بالقول " أن كل بلاغات العقيدة الوطنية الأمريكية كانت ولا زالت تستمد روحها من فكرة إسرائيل الأسطورية، ومن القناعة بأن الأمة الأمريكية هي إسرائيل الله الجديدة، بدءاً من العهد المقدس للمستكشفين الأوائل الملقبون بالحجاج مع يهوى في سفينتهم (ماي فور) هي تتخر بهم عرض المحيط سنة 1620 وانتهاءً باعتقاد الرئيس جورج بوش الابن بأنه النبي موسى (39)

فتوارد خلاصة هذه الأفكار مستتدة إلى " إسرائيل" الأسطورية الولايات المتحدة منذ نشأتها إلى اليوم على ألسنة رؤسائها وموظفيها وحتى علمائها وقد هتف جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة في خطابه الافتتاحي " إن كل خطوة تخطوها الولايات المتحدة تحمل علامة تدخل العناية الإلهية" أما خليفته جون آدمز الرئيس الثاني للولايات المتحدة فكتب سنة 1765 " لقد أوجدت العناية الإلهية أمريكا لتكون مسرحاً يحقق فيه الإنسان مكانته الخاصة"، أما الرئيس الثالث توماس فجرسون فقد صرح علانية " أن الشعب الأمريكي هو شعب الله المختار"، أما الكاتب " هيرمان

38- نفس المصدر السابق، ص 73.

39- نفس المصدر السابق، ص 153.

فيرن" في القرن التاسع عشر فيقول: " نحن الأمريكيون شعب الله المختار إسرائيل عصرنا نقود سفينة الحرية".

لقد شكّلت هذه الأيديولوجية التوراتية تبريراً للمذابح التي جرى ارتكابها بحق السكان الأصليين، وقد ارتكبت مذابح فظيعة تقشعر لها الأبدان ضد السكان الأصليين استُخدمت فيها كل وسائل الإبادة كالذبح والسلخ والحروب الجرثومية والحرق وعشرات الوسائل الأخرى.

وقديس الاستعمار البريطاني للعالم الجديد "كوتون ماذر" مثلاً كان يعتقد أن الشيطان هو الذي استدرج الهنود للعيش في أمريكا ليخلو بهم بعيداً جداً عن المسيح والكتاب المقدس، لكن مكر الله أكبر، فقد عرف في النهاية مكان الشيطان وأرسل إليه وإلى أتباعه الهنود أقدس محاربيه، الانجليز، الذين استطاعوا بعون السماء أن ينشروا الأوبئة ويمجدوا الرب" (40)

وقد شن الأمريكان على الهنود الحمر أكثر من 93 حرباً جرثومية شاملة منذ القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، ومن هذه الحروب 41 حرب نشر مرض الجدري، و4 طاعون، و10 انفلونزا، 21 سل، وهيستيرا وكوليرا... الخ (41).

صحيح أن الأوبئة التي حارب بها الأوروبيون سكان أمريكا الأصليين أسقطت من القتلى أكثر مما أسقطت من القتل المباشر، ولكن المؤرخين لا يعلقون على مقتل 12 مليون إنسان على أيدي أبناء العالم الجديد من الأمراض وحسب بل يحاولون الإيحاء بأنها الهولوكوست أو أنها القضاء والقدر (42).

العالم الإنجليزي الموسوعي "توماس هاريوت" يقول (هناك إرادة إلهية وراء هذا الموت بالأوبئة الفتاكة، ويا للمعجزة: إنها لا تقتل إلا الهنود. إن الله يعاقبهم بسبب عدوانهم على الانجليز) (43).

40- نفس المصدر السابق، ص 57

41- نفس المصدر السابق، ص 57

42- نفي المصدر السابق، ص 55

43- نفس المصدر السابق ص 56

وعبارة العناية الإلهية التي استخدمها المستعمرون الإنجليز في القرن السابع عشر عندما قالوا " أن هذه الأوبئة نعمة إلهية أرسلها الله لتطهير الأرض التي أعطاها لشعبه. ومنهم من اعتبرها، معجزة لا تقل جلالاً عن معجزة الأوبئة العشرة التي تروي الأساطير العبرية أنها فتكت بالمصريين... إلى آخر هذا التخريف) (44).

لم يكتفِ الغزاة الانجليز بأن وظفوا ربهم في حروبهم جندياً مهووساً بالقتل والجريمة يتقدم عساكرهم ومستوطناتهم، بل تعمدوا أيضاً ان ينسبوا إليه كل رذائلهم ومذابحهم وفضاعاتهم التي استمرت في زمن السلم وزمن الحرب، مع المحترفين، ومع الهواة، وبشكل جماعي منظم أو شكل فردي يتولاه المستوطنون. فاتهام العناية الإلهية بهذه الحرب الجرثومية، ثم الادعاء بأن ما حدث كان " مأساة مشؤومة يؤسف لها" لا يهدف إلى تبرئة أنفسهم وحسب، بل يهدف في سياق طقوس عبادة الذات إلى التبرجح بأنهم أنبل من ربهم الذي ارتكب كل هذه الجرائم (45).

ويقول منير العكش " منذ أربعة قرون وهم ينهشون أجساد الهنود ويشبهونها بأجساد الكنعانيين التي أحل الله لشعبه أن يفعل بها ما يشاء. كانوا يتفننون في أنواع الأوبئة التي يقتلون بها هؤلاء الكنعانيين الحمر. أكثر من 93 حرباً جرثومية شاملة شنوها عليهم منذ أن وطأت أقدامهم صخرة بليموت المقدسة في القرن السابع عشر حتى القرن العشرين" (46).

ولم تقتصر حروب الإبادة على نشر الأوبئة بل تعدتها إلى ما هو أفظع فقد كانوا يسلخون ضحاياهم بأسنانهم أو يتهادون في المناسبات والأعياد جماجم ضحاياهم وفروات رؤوسهم أو ينزعون الجنين من بطن أمه ويغطسونه بالماء المقدس لتعميده ثم يخبطون رأسه بالجدار ويسحقونه، أو يقتلون البشر ترفيهاً عن النفس ثم يسلخون قتلاهم ليصنعوا من جلودهم مشاحذ لموسى الحلاقة أو يشوون البشر ويأكلون بطاطا مطبوخة بشحمهم، أو ترصد حكوماتهم جوائز

44- نفس المصدر السابق، ص 153

45- نفس المصدر السابق، ص 57

46- نفس المصدر السابق، ص 54.

لسلخ فروات الرؤوس أو يسلقون رؤوس قتلاهم في القدور ويصنعون منها حساء، أو يتلذذون بأكل أكبادهم، أو يقتلعون فروج النساء ويشدونها على سروج خيولهم أو قبعاتهم، أو يصنعون من ذكر الرجال أكياس تبغ (47) .

فهذا جورج واشنطن، التي تظهر أيقونته المقدسة على ورقة الدولار وتخلده آلاف التماثيل وعشرات المدن الأمريكية من العاصمة في الشرق إلى ولاية واشنطن في أقصى الغرب، يأمر قائده العام في الحرب على هنود الأروكوا بأن يدمر كل ما يجده على وجه الأرض، ويحضه على أن يصم أذنيه عن نداءات السلام أو الرحمة قبل أن تصبح أرض هنود الأروكوا قاعاً صفصفاً. وقد أطاع الجنرال جون سوليفن أوامر الرئيس واشنطن وكتب له لاحقاً يبشره بدمار كل شيء وبتحويل تلك الجنان الجميلة إلى قفار مخيفة، ثم يذف إليه أنباء القتل " لقد اصطيد الهنود كما تصطاد الوحوش في حرب إبادة واستئصال، وفعلاً فقد كان واشنطن يصفهم بالوحوش والذئاب ويقول أنهم لا يختلفون عنهم إلا في الهيئة. بهذه الخدعة العقلية التي انطلت عليها أولاً زاغ بصر هذا الفوهرر الأمريكي المقدس فلم يعد يستطيع أن يرى في الهنود بشراً، وتحجرت مشاعره الانسانية فلفظت عنها كل معاني الشفقة ووخز الضمير أمام قتل الهنود أو تدميرهم أو تحويل جنانهم إلى قفار مخيفة، وكان واشنطن يسمى بهدام المدن حيث هدم في أقل من خمس سنوات 28 مدينة هندية من أصل 30 من مدن هنود الأروكوا (48) ، وكان دائماً يقول (عندما نسحقهم سحقاً كاملاً علينا أن ننادي بالسلام مستغلين خوفهم لتحقيق المزيد من المكاسب) .

أما الرئيس أندرو جاكسون الذي تزين أيقونته المقدسة ورقة العشرين دولاراً كان يتباهى بالقول أنه يسلخ جلود كل من يقتلهم ويحتفظ بها، وأنه سلخ جثث مئات الهنود وجدهم أنوفهم ودبغ جلود أجسادهم لجعلها أعنة للخيول.

47- نفس المصدر السابق، ص 86.

48- نفس المصدر السابق، ص 69.

كان هذا القديس الأمريكي يأمر القوات الأمريكية بقتل كل نساء الهنود وأطفالهم والبحث عنهم في مخابئهم لاستكمال هذه الإبادة (49)، أما توماس جفرسون كان جفرسون يأمر وزير حربه بأن يسحق كل هندي يرفض التوسع الأمريكي وأن يستخدم البلطة في ذلك، وكنا يقول " لن نرفع هذه البلطة عن رؤوسهم حتى يبادوا عن بكرة أبيهم أو يرحلوا إلى ما وراء الميسيسيبي (50) .

ويروي مؤلف الهولوكوست الأمريكي "دافيد ستانرد" قصصاً مؤلمة عن مذابح النساء والأطفال التي ارتكبتها الرئيس "أندرو جاكسون" لاستكمال مهمة الإبادة، فبذلك يتحقق أحد أركان فكرة أمريكا الثلاثة، احتلال الأرض، واستبدال شعب بشعب، وثقافة وتاريخ بثقافة وتاريخ (51)، ويرى ستانرد أن نسبة الإبادة كانت بين 92 و 93 بالمائة من سكان الأمريكيتين. إنها بتعبيره " أكبر حرب إبادة في تاريخ العالم (52) .

هناك نوع من السرد السحري لخرافتي " الشعب المختار " و " القدر المتجلي " يتحكم بفهم الأمريكيين لتاريخهم ولسيرورة هذا التاريخ، تراثها أجيالهم عن بعضها منذ موجات الغزو الأولى (53) وكان فكرة أمريكا لم تكن هدفاً لتبرير الإبادة في عيون هؤلاء المحتلين العنصريين، وكان فكرة أمريكا لم تكن كافية لتبرير الإبادة في عيون هؤلاء الحصريين العنصريين حتى تردفها عقيدة القدر المتجلي التي جذت القدر وأسلحة القدر في حروب المستوطنين الغزاة ومذابحهم (54)، لقد شحن القدر هذا السعار الاستيطاني بجشع وحشي إلى المزيد من القتل والمزيد من التوسع خاصة أن الانتصار في حرب المكسيك (1846-1848) زاد من القناعة بأن الولايات المتحدة يجب أن تصبح أكبر من الأرض نفسها أو كما عرفها آرثر بيرد عام 1899 بأنها ستكون بعد مائة عام جمهورية كونية يحدها من الشمال القطب الشمالي ومن الجنوب قارة الانتركتيكا القطب الجنوبي أما من الشرق

49- نفس المصدر السابق، ص 68.

50- نفس المصدر السابق، ص 70.

51- نفس المصدر السابق، ص 54

52- نفس المصدر السابق، ص 139

53- نفس المصدر السابق، ص 67

54- نفس المصدر السابق، ص 72

فيحدها الاصحاب الأول من سفر التكوين، ومن الغرب يوم القيامة (55)، أما عالم الاجتماع الأمريكي "جورج فيتزهو" يقول " إن القاصي والداني يعلم أن الانجليز أو الأمريكيين الذين استوطنوا بين الأعراق الوضيعة أصبحوا بسرعة سادة الأرض وأصحابها وراحوا بالتدريج يستأصلون السكان الأصليين فالهندي الأحمر كالكنعاني الفلسطيني المتوحش منذور للفناء والإبادة هنا عمل ضروري لا غبار عليه لأن القوي، حيثما كان، يبتلع الضعيف مثلما أن النبات والحيوان الأقوى يقضي على الأضعف، وإن قدر العرق الأنجلوسكسوني أن يلتهم الأعراق الأخرى. هذا ما ستفعله أمريكا في مكسيكو، وجنوب أمريكا وآسيا والمحيط الهادي بل وفي أوروبا. فعندما يتقدم العرق الأمريكي الذي يجري في عروقه أفضل دم، دم الانجلوسكسون - تتلاشى الأعراق الأخرى، لأن ذلك وعد إلهي (56).

ولم يكتفِ شعب الله المختار بحروب الأوبئة والذبح والسلخ والذبح والتي أبادت طوال أربعة قرون عشرات الملايين من الهنود، بل انتهج سياسة تعقيم من تبقى منهم حتى تكتمل الإبادة الشاملة لعموم السكان الأصليين، ويبقى لتعقيم نساء السكان الأصليين داخل ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة، منزلة مقدسة في قلوب الشعب المختار تضرب جذورها في أعماق فكرة أمريكا نفسها. ليس من أجل الإبادة والاستئصال فحسب بل لأن الغزاة يرون في رحم المرأة الهندية مزرعة أبناء فهي التي تتجب الرجال، وتحول بذلك دون السيطرة على ما تبقى من الأرض وثرواتها في أيدي الهنود (57).

وبعد نصف قرن من غزو بلاد هنود ميامي وتأسيس مدينة انديانابوليس على أنقاض قراهم وحقولهم وقبور آبائهم، اكتشف الكاهن المستشرق "أوسكار مكلوش" في هذه المدينة ظاهرة اجتماعية غريبة جعلها مثلاً حياً على كل قبح، وشر، وفساد، وانحطاط، وعاهات عرفتها البشرية،

55- نفس المصدر السابق، ص 73

56- نفس المصدر السابق، ص 83

57- نفس المصدر السابق، ص 53.

وقد أعانه اسم أهلها الغريب " قبيلة " بن اسماعيل " على سكب المزيد من الحبر الأسود على الصورة الاستشراقية النمطية السائدة عن العرب والمسلمين (58).

أوسكار مكولوش أثناء المؤتمر الخامس للإصلاحات والجمعيات المنعقد في ولاية نيويورك في يوليو تموز 1888 أعد دراسة بعنوان " قبيلة إسماعيل دراسة في الانحطاط الاجتماعي " (59) والتي وحشتهم وهمجتهم وشبهتهم بالطفيليات المائية التي تعيش على قشر السلطعون (60) مثلاً، ومن ذلك الإيحاء بأن لقبيلة بن اسماعيل قرابة مع المسلمين أو العرب، لا سيما أن أسطورة هاجر الجارية " أم اسماعيل " وأولادها المنذورين للعبودية إلى يوم القيامة ما زالت تتخر اللاوعي الأمريكي بل والعربي المسكون بأساطير العبرانيين (61).

لقد كان "أوسكار بقولش" من رواد العنصرية الغربية فقد كان من رواد العنصرية العلمية في الولايات المتحدة وفارساً مجلياً من قرسان البيوريتانية والاستشراق والتشنيع بالعرب والمسلمين، فما أن اكتشف أن ضحاياه ينتمون إلى " بن اسماعيل " حتى أدرك أنه أمام الفريسة المشتهاة، إذ سرعان ما تحول " بن اسماعيل " إلى " ابن اسماعيل"، ومع اضافة لقب القبيلة إلى نسله وجد فن الشيطنة نفسه، في عراء صحراء العرب، وجهاً لوجه مع الجارية هاجر وذريها الذين حقن الفوهرر السماوي في خلاياهم الوراثية ما قضي عليهم بالعبودية الأبدية لشعبه (62).

أمضى "بقولش" طيلة حياته في التشهير والتحقير والتحريض على هؤلاء الضعفاء، أو الحجر على حرياتهم وأرواحهم وأعضائهم التناسلية، حيث جرى تعقيم هذه القبيلة بالكامل، لذلك كانت "انديانابوليس" أول ولاية لسن قانوناً للتعقيم الإنساني، وأول مكان في الأرض تشهد تعقيماً جماعياً، وصارت بعد ثلاثة عقود نبراساً للنازيين الألمان (63)، فقد كان هتلر مفتوناً بعقيدة القدر المتجلي

58- نفس المصدر السابق، ص 37

59- نفس المصدر السابق، ص 37

60- نفس المصدر السابق، ص 38

61- نفس المصدر السابق، ص 39

62- نفس المصدر السابق، ص 40

63- نفس المصدر السابق، ص 40

وبفعالية الحملة الإبادية لسكان أمريكا الأصليين، وكان يعتبرها مثلاً يحتذى في برنامجه العرقي (64).

وقد استمرت عملية التعقيم لسنوات طويلة حتى سبعينيات القرن العشرين حيث شمل التعقيم 50% من النساء الهنديات، وطوال أربعة قرون أدت وسائل القتل المختلفة إلى إبادة حوالي 400 شعب وأمة وهو ما يصل إلى أكثر من 112 مليون هندياً، ولعل أبلغ ما عبّر عن هذه الإبادة تلك الكلمة التي قالها الرئيس الأمريكي روزفلت سنة 1869 (لم تنتصر قيمنا الحضارية ما لم نتحلى بالأخلاق البربرية) وهذه هي الأخلاق البربرية التي أوحى بهتلر بارتكاب مذابحه وإباداته أثناء الحرب العالمية الثانية (65)، وفي هذا يقول المؤرخ الأمريكي "دافيد ستانرد" "لو أن هتلر بحث عما يعزز أفكاره وبرامجه ويبررها لما وجد أفضل من تبريرات البيوريتانس " الغزاة الانجليز " التي نسبوها إلى السماء وهي بالطبع مستمدة من تبريرات العبرانيين لقتل الكنعانيين واغتصاب بلادهم وأبدوا بها سكان أمريكا الأصليين (66).

لقد كان الهولوكوست الأمريكي وما زال هو الأكثر دموية على مدى التاريخ البشري المعروف، وهو المثال الذي استعار النازيون أخلاقه وكثيراً من مبرراته وأسلحته، كما استعار الغزاة الانجليز قبلهم شيئاً من أساطير العبرانيين (67).

• المعنى التوراتي " لإسرائيل " الحالية

ظهرت الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر بهدف حل المشكلة اليهودية المتفاقمة في أوروبا خلال مشروع الدولة اليهودية كجزء من المنظومة الاستعمارية العالمية، وتحويل هذه الدولة إلى دولة وظيفية تقوم على حماية المصالح الاستعمارية في المنطقة، وهو ما عبّر عنه " تيودور هرتزل " مؤسس الحركة الصهيونية في كتابه (دولة اليهود) بالقول (الدولة اليهودية ستكون قلعة

64- نفس المصدر السابق، ص 34

65- نفس المصدر السابق، ص 74

66- نفس المصدر السابق، ص 74

67- نفس المصدر السابق، ص 77

متقدمة أمامية للحضارة الغربية في وجه بربرية الشرق) (68). إن هذا النص يلخص جوهر الصهيونية ومشروعها لإنشاء الدولة اليهودية، ومن أجل إقناع اليهود المنتشرين في كافة بقاع العالم راحت تستدعي التاريخ اليهودي التوراتي المتخيل بهدف دفعهم للهجرة إلى أرض الأجداد والمساهمة في بناء الدولة اليهودية.

وقد تبنت الحركة الصهيونية المزاعم التوراتية بما فيها " دولة إسرائيل " الأسطورية والمتخيلة وأرض الميعاد بوصفها الوطن القومي القديم لليهود. كما وبينت الحروب والمعارك الأسطورية المستوحاة من التوراة ذلك (69).

وحسب شموال أحد قدامى المؤرخين الإسرائيليين فقد كانت الحركة الصهيونية بحاجة إلى تاريخ من أجل إقناع اليهود أينما كانوا أنهم يشكلون كياناً واحداً وأن هناك خطر تاريخي مستمر وحتى زمن اليهودية الحديثة.

ومن أجل أن يحقق المفكرون الصهاينة مشروعهم، طالبوا بالأرض التوراتية واستحضروها، أو بالأحرى اخترعوها مهداً لحركتهم القومية الجديدة. وبحسب رؤيتهم، أصبحت فلسطين بلداً يحتله " غرباء " ويجب استرداده منهم. (70).

وفقاً لهذه التصورات شرعت الحركة الصهيونية بالتخطيط للاستيلاء على أرض فلسطين بعد طرد أهلها أو إبادتهم وإحلال الجماعات الاستيطانية مكانهم، وقد تبنت بريطانيا المشروع الصهيوني من خلال وعد بلفور وضممتها لأبواب الهجرة على مصراعها أمام اليهود من شتى بقاع العالم إلى فلسطين بعد احتلالها من قبل الانجليز عام 1917 . وبعد أن قويت شوكة المهاجرين اليهود أخذوا يخططون لعملية طرد الفلسطينيين من أراضيهم (71).

68- جورج كنعان، خطبة الفلسطينيين دار الطليعة، بيروت، ط1، 2007.

69- نفس المصدر السابق.

70- إيلان بابيه، فكرة إسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات، حيفا، ط1، 2015، ص 36

71- إيلان بابيه، التطهير العرقي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 2007، ص19.

وكان "بن غوريون" قد وصف هذه الوسائل في سنة 1937 عندما ناقش مع أصدقاء له مسألة فقدان أغلبية يهودية صلبة في دولة مستقبلية. وقد أخبرهم أن واقعاً كهذا - الأغلبية الفلسطينية في البلد - سيرغم المستوطنين اليهود على استخدام القوة لتحقيق الحلم: فلسطين يهودية محضة. وبعد عشرة أعوام، في 3 كانون الأول/ديسمبر 1947، في خطاب له أمام كبار أعضاء حزب مباي " حزب عمال أرض إسرائيل" لخص بصورة أوضح كيف يجب التعامل مع حقائق لا يمكن قبولها، مثل قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة: " هناك 40% من غير اليهود في المناطق المخصصة للدولة اليهودية. إن هذه التركيبة ليست أساساً متيناً لدولة يهودية، ويجب أن نواجه هذا الواقع الجديد بكل قسوته ووضوحه. إن ميزاناً ديمغرافياً كهذا يطرح علامة استفهام بشأن قدرتنا على المحافظة على سيادة يهودية فقط دولة 80% من سكانها على الأقل يهود يمكن أن تكون قابلة للحياة ومستقرة. في 2 تشرين الثاني/نوفمبر أي قبل شهر تقريباً من تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم، وأمام هيئة أخرى هي اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، صرح "بن غوريون" أول مرة بمنتهى الوضوح أن التطهير العرقي يشكل وسيلة بديلة، أو متممة، من أجل ضمان أن تكون الدولة الجديدة يهودية محضة. وقد أخبر الحاضرين أن الفلسطينيين داخل الدولة اليهودية يمكن أن يصبحوا طابوراً خامساً، وبما أن الأمر كذلك فإنه يمكن اعتقالهم جماعياً أو طردهم، ومن الأفضل طردهم" (72).

وتصريحات "بن غوريون" هذه وتصريحات غيرهم من قادة الصهاينة تكشف مخططات الحركة الصهيونية لإقامة وطن قومي لليهود على أنقاض الشعب الفلسطيني، وهي تنفي المزاعم الصهيونية عن فرار مئات الألوف من الفلسطينيين قراهم وبلداتهم ومدنهم عام النكبة، وأن الجيوش العربية طلبت منهم مغادرة بيوتهم، فقرار التطهير العرقي وارتكاب المذابح المستوحاة من فكرة " يشوع التوراتي" كان مقررًا سلفاً قبل النكبة بعقود، وهو كامن في فكرة "إسرائيل" ذاتها وعلى هذا الأساس شنت العصابات الصهيونية الحروب العسكرية وارتكبت المذابح والمجازر عام 1948.

72- نفس المصدر السابق، ص 58.

وبمقدورنا أن نستنتج أنها إحدى السيناريوهات المستوحاة من الأسفار التوراتية، والتأمل في عبارة "بن غوريون" البليغة حين صرح قائلاً (الجيش الإسرائيلي خير مفسر للتوراة)، فهذه العبارة تلخص الأيديولوجيا التوراتية التي نهلت منها العصابات الصهيونية حرب إبادة المقدسة بحق الفلسطينيين منذ النكبة وحتى وقتنا الحاضر، فالأسفار التوراتية وأبرزها " سفر يشوع" الدموي شكّلت المرجعية الأيديولوجية لممارسات هذه الدولة وقيامها، فعلى أساسها أقيمت الخطط العسكرية في حرب العام 1948 حيث تضمنت ارتكاب عشرات المذابح وتدمير مئات القرى والبلدات الفلسطينية وتهجير أهلها.

وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة ستة أشهر. ومع اكتمال التنفيذ، كان أكثر من نصف سكان فلسطين الأصليين، أي ما يقارب 800 ألف نسمة، قد اقتلعوا من أماكن عيشهم، و531 قرية دُمرت، و11 حياً مدنياً أُخلي من سكانه. إن هذه الخطة التي تقرر تطبيقها في 10 آذار/ مارس 1948، والأهم من ذلك تنفيذها بطريقة منهجية في الأشهر التالية، تشكّل مثلاً واضحاً جداً لعملية تطهير عرقي، وتعتبر اليوم في نظر القانون الدولي جريمة ضد الإنسانية (73).

الاسم الرسمي للخطة دالت كان " خطة يهوشواع" على اسم يهوشواع غلوبرمان، المولود في روسيا البيضاء سنة 1905، وهو أحد قادة الهاغاناة، حيث قتل في إحدى المعارك في كانون الأول عام 1947 (74)

وبرأينا لم يجر تسمية هذه الخطة بهذا المسمى عبثاً أو مصادفةً حتى وإن حملت اسم أحد قادة الهاغاناة القائلة، فالاسم (يهوشواع) اسم مركب يحمل جزءه الأول (يهوا) وهو رب التوراة الذي يحرض قبائل " إسرائيل" على حروب الإبادة، أما الشق الثاني لهذا المسمى فيحمل اسم (شواع) وهو القائد العبري الأسطوري الذي ارتكب مذبحه أريحا وعشرات المذابح الأخرى،

73- نفس المصدر السابق، ص 3

74- نفس المصدر السابق، ص 92

فتسمية هذه الخطة بهذا الاسم لها دلالاتها التاريخية، ولقد تقرر تنفيذ الخطة " دالت " بتاريخ 1947/3/10، حيث تضمنت هذه الخطة تنفيذ العمليات على النحو التالي:

إما بتدمير القرى (إحراقها ونسفها وزرع ألغام بين الأنقاض)، وخصوصاً المراكز السكانية التي من الصعب السيطرة عليها بصورة دائمة، وإما بالقيام بعمليات تمشيط وسيطرة وفقاً للتوجيهات التالية: في حال حدوث مقاومة يجب إبادة القوات المسلحة وطرد السكان إلى خارج حدود الدولة(75).

ويكتب "بن غوريون" عن مجريات وتوجيهات القيادة والمقاتلين في الميدان، والمطلوب رد قاسي وقوي، وثمة حاجة للضرب بغير رحمة بما في ذلك النساء والأطفال، وإلا لن يكون الرد فعالاً.

كانت هذه هي الاستراتيجية العسكرية لقيادة الدولة العبرية ولا فارق بين العصابات اليهودية "الأرغون وليحي" وبين قوات "الهاغاناة"، حيث شكّلت مذبحه دير ياسين إحدى أهم الترجمات العملية للخطة دالت والتوجهات السياسية الصادرة عن قيادات العصابات الصهيونية متمثلة بالقائد العام لقوات الهاغاناة " بن غوريون" ليغدو أول رئيس يحكم دولة الكيان، وأيضاً قائد عصابة الأرغون " مناحيم بيغن" والذي سيصبح بعد ذلك أحد الرؤساء البارزين لحكومة الكيان.

لقد شارك في هذه المذبحة التي ارتكبت بتاريخ 1948/4/9 المئات من عصابتي الأرغون وليحي وبتغطية نارية من قوات الهاغاناة حيث نجم عن هذه المذبحة 254 شهيداً من بينهم 30 طفلاً واغتصاب العشرات من النساء وغيرها من ممارسات تقشعر لها الأبدان (76).

قرر قادة المنظمتين أن لا سبيل للتخلص من جثث ضحاياهما إلا بحرقها. ويروي "موشيه برزيلي"، ضابط استخبارات ليحي: " صببنا ثلاثة أوعية نפט على ثلاثين جثة في الشارع الرئيسي في القرية وأحرقناها (77).

75- نفس المصدر السابق، ص 95

76- نفس المصدر السابق، ص 95

77- وليد الخالدي، دير ياسين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القدس، ط1، 1999، ص 105

ويروي شاهد عيان من "ليحي" يدعي شمعون مونيئا" اعتقدنا أن الجثث ستشتعل ولكن لا يمكن احراق جثث في الهواء الطلق ولقد بنى النازيون من أجل ذلك موقداً خاصاً يشتعل بدرجة حرارة عالية جداً (78).

ويقول "عاموس بيرلميوتر" كاتب سيرة "مناحيم بيغن"، إن "بيغن" صرح تلك الليلة " أن احتلال دير ياسين "انجاز رائع، وإن "حاييم لنداو"، نائب بيغن، وجه الرسالة التالية إلى قادة العملية: " تقبلوا تهانينا على هذا النصر المدهش، انقلوا إلى الجميع أفراداً وقادة أننا نصافحهم فخورين بروحهم القتالية الغازية التي صنعت التاريخ في أرض اسرائيل وإلى النصر كما في دير ياسين كذلك في غيرها سنقتحم ونبيد العدو، ربنا، ربنا لقد اخترتنا للفتح" (79).

هذه الرسالة التي تفوح منها رائحة " سفر يشوع" الدموية الأسطورية وتختصر الرؤية الصهيونية البشعة والمشبعة بالروح الإجرامية للعصابات الصهيونية هي التي ستشكّل فيما بعد ما يُعرف بـ(جيش الدفاع الإسرائيلي) وما سيرتكبه هذا الجيش من مذابح وشنه عشرات الحروب والهجمات طوال سبعين عاماً.

لكن دير ياسين لم تكن استثناءً في هذه الحروب البشعة والمأخوذة من الأيديولوجية التوراتية المجرمة، فقد ارتكبت عشرات المذابح المشابهة، ففي بعض القرى التي كانت قريبة من المراكز السكانية الحضرية اتبعت القوات اليهودية سياسة ارتكاب المجازر كي تسرع هروب السكان في المدن والبلدات المجاورة. وهذا ما حدث في حالة ناصر الدين بالقرب من طبرية، وعين الزيتون بالقرب من صفد، وطيرة حيفا المجاورة لحيفا. وفي هذه القرى الثلاث، اعدت الهاغاناة مجموعات من الرجال، أو بحسب تعبيرها، " ذكوراً تتراوح أعمارهم بين سن العاشرة وسن الخمسين" من أجل تخويف وارهاب سكان القرى وأولئك القاطنين في المدن المجاورة (80).

78- نفس المصدر السابق، ص 106

79- نفس المصدر السابق، ص 97

80- التطهير العرقي، مصدر سبق ذكره، ص 122

كانت العملية في ريف صفد مدفوعة بالتخطيط الفعال أكثر منها بالغضب الشديد، وأعطيت الاسم الرمزي المنذر بالشؤم " مكنسة". وقد بدأت بتطهير القرى الواقعة على امتداد طريق طبرية - صفد الرئيسي (81).

ومن بين القرى التي ارتكبت بها مذبحه فظيعة في هذه المنطقة هي قرية عين الزيتون والتي استشهد فيها المئات وجرح الأطفال والنساء والرضع وجرى تدمير القرية (82).

وفي مدينة اللد ارتكبت مذبحه فظيعة بحق المئات من النساء والأطفال والشيوخ، والذين تحصنوا في جامع (دغمش) حيث استشهد في هذه المذبحه 426 شهيداً معظمهم من النساء والأطفال، وجرى بعدها طرد خمسين ألفاً من سكان المدينة، وفي بلدة الدوايمة القريبة من مدينة الخليل ارتكبت مجزرة بتاريخ 1948/10/28 خلفت مئات الشهداء والمفقودين. وقد وصف الجنود الذين شاركوا بالمجزرة مشاهد تقشعر لها الأبدان أطفال رضع حُطمت جماجمهم ونساء اغتصبن أو احرقن وهن أحياء داخل بيوتهم ورجال طعنوا حتى الموت (83).

وقد جرت عشرات المجازر المشابهة نذكر عدداً منها باختصار مذبحه الطنطورة استشهد فيها المئات، مجزرة مجد كروم واستشهد فيها العشرات، مذبحه صفد... الخ.

ولم تقتصر مذابح العصابات الصهيونية على هذا الشكل من الوسائل بل تعدتها إلى استخدام الأسلحة البيولوجية والجرثومية بحق المدنيين في هذه الحرب، وهو ما يُذكر بالحروب الجرثومية التي استخدمها المستوطنون البيض بحق الهنود الحمر.

ويكشف "ايلان بابيه" في كتابه التطهير العرقي أنه كان هناك مشروع لتطهير عرقي بأسلحة بيولوجية بإشراف عالم كيمياء طبيعية اسمه " إفرام كاتسير" والذي سيصبح لاحقاً رئيساً لدولة " إسرائيل". وقد بدأ عمله بوحدة البيولوجي الذي سيقودها مع أخوه (أهارون) بصورة جدية والتي كان

81- نفس المصدر السابق، ص 120

82- نفس المصدر السابق، ص 124

83- نفس المصدر السابق، ص 225

هدفها الرئيس اختراع سلاح يسبب الإصابة بالعمى، وقد ذكر في تقرير له مرفوع إلى " بن غوريون" (نجري تجارينا على الحيوانات، وكان الباحثون عندنا يرتدون أقنعة غاز وملابس واقية، النتائج جيدة، الحيوانات لم تهلك بل أصيبت بالعمى فقط، نستطيع أن ننضج يوماً 20 كيلوجراماً من هذه المادة). وفي حزيران اقترح " كاتسير" استعمال هذه المادة ضد البشر⁽⁸⁴⁾، ولم تتردد العصابات الصهيونية في استخدام الأسلحة البيولوجية ضد البشر أثناء هذه الحرب، فبعد أن فشلت العصابات اليهودية في قهر مدينة عكا كان مصدر مياهها المكشوف، الواقع على بعد عشرة كيلومترات إلى الشمال منها، من ينابيع الكابري، المسحوبة عبر قناة عمرها 200 عام، كان بمثابة عقب أخيل بالنسبة إليها. ويبدو أنه جرى خلال الحصار تلويث المياه بجراثيم التيفويد. وهو ما تسبب في استشهاد أكثر من سبعين شخصاً بسبب تلوث المياه⁽⁸⁵⁾. كانت مكبرات الصوت اليهودية خلال حصار عكا للمدينة تقول (استسلموا أو انتحروا سنبيدكم حتى آخر رجل فيكم)⁽⁸⁶⁾

كما جرت محاولة مشابهة لتسميم مصادر مياه غزة في تاريخ 1948/5/24 لكنها أحبطت، فقد ألقى المصريون القبض على يهوديين هما " ديفيد حورون وديفيد مزراحيم" بينما كانا يحاولان تلويث مصدر المياه في غزة بجراثيم التيفويد، وأخطر الجنرال " ايغال يشايد" " بن غوريون" رئيس حكومة " إسرائيل" بالحادثة وسجلها، وأعدم المصريون اليهوديين لاحقاً ولم تصدر من الإسرائيليين أية احتجاجات رسمية⁽⁸⁷⁾.

نزحت العصابات الصهيونية عشرات الآلاف من الفلسطينيين، وقتلت عدد كبير منهم، ودمرت 531 بلدة، وبهذا أصبح 85% من الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في المناطق التي أصبحت " دولة إسرائيل" صاروا لاجئين.

84- نفس المصدر السابق، ص 84

85- نفس المصدر السابق، ص 111

86- نفس المصدر السابق، ص 112

87- نفس المصدر السابق، ص 112

ويبدو " بن غوريون " فيما دونه في يومياته بتاريخ 24 أيار/ مايو، بعد أن التقى مستشاريه، مبتهجاً بالنصر وشرهاً إلى السلطة أكثر من أي وقت مضى " يجب إقامة دولة مسيحية " في لبنان" يكون نهر الليطاني حدها الجنوبي، عندما نحطم قوة الفيلق ونقصف عمان، سنقضي أيضاً على قوة شرق الأردن، وعندها تسقط سورية. وإذا تجرأت مصر على مواصلة القتال سنقصف بورسعيد، والاسكندرية، والقاهرة. وهكذا سننهي الحرب، وسننهي حساب أجدادنا مع مصر ومع آشور وأرام " (88).

هكذا قرأ "بن غوريون" نتائج هذه الحرب، إنها امتداد لحروب يشوع التوراتية، وأنه أقام دولته مغلقاً حساب ثلاثة آلاف عام مع الفراعنة والآشوريين والآراميين، وحسابه مع الفلسطينيين من الأجداد والكنعانيين.

لكن حرب العام 1948 لم تنته بعد وسيأتيها حروب ومجازر امتدت طوال سبعين عاماً، ويكفي التذكير بعض الوقائع مثل مجازر كفر قاسم، مجزرة قبية، السموع، نحالين، خان يونس، وإعدام المئات من الجنود المصريين في سيناء بحرب 1967 في المعارك، وإعدامات الآلاف من المقاومين والمدنيين والأطفال أثناء الانتفاضتين الأولى والثانية، ومجزرة مخيم جنين والبلدة القديمة في نابلس عام 2002 حتى الحروب التي شنتها " إسرائيل " من اعدامات جماعية للمدنيين الآمنين في حروب لبنان بالأعوام 1978، 1985، 1992، 1996، 2006. وكذلك حروبها البشعة على قطاع غزة أعوام (2008، 2012، 2014) حيث جرت إبادة الآلاف ومنها إبادة عائلات بأكملها.

● الحرب المقدسة لم تنته بعد:

بعد سبعين عاماً من نكبة الشعب الفلسطيني واحتلال أرضهم وإحلال الجماعات الاستيطانية اليهودية مكانهم، وبعد مرور سبعين عاماً على إنشاء دولة " إسرائيل " لازالت ذات الممارسات

الصهيونية تستلهم المنهج التوراتي الأسطوري في حروبها المقدسة ضد الفلسطينيين والعرب عموماً رغم محاولات هذه الدولة وصف نفسها بأنها دولة علمانية وديمقراطية، إلا أنها تظل خاضعة للأيديولوجية التوراتية، وقد استمدت توجهه السياسي والاقتصادي والجغرافي لهذه الدولة من الأسطورية التاريخية التي تم تطويرها منذ المقولة الصهيونية القائلة بأن " الأرض هي الوطن اليهودي القديم تعود لليهود فقط (89)

ويشرح " ابراهام بورغ" رئيس " الكنيسة" السابق عن هذه الأيديولوجيا الدينية وتأثيراتها في الممارسات السياسية والاجتماعية والثقافية، وينقل لنا على سبيل المثال لا الحصر آراء أحد الحاخامات الكبار في " إسرائيل" وهو الحاخام " اسحق زيربورغ" الذي كان يرأس المدرسة التوراتية في قبر يوسف بنابلس، ويعد هذا الحاخام أحد الذين اعتنقوا النظرية العرقية المعاصرة، وهو كما أصحابه العنصريين اليهود الآخرين رجال يؤمنون بأنه ليس كافياً دراسة التوراة نظرياً دون الفعل الشديد الملازم لها (90) .

وهذا الحاخام هو أحد العناصر الأقوى تأثيراً على الراديكالية الدينية التوراتية الحديثة في " إسرائيل" وهو أكثر الحاخامات حضوراً وأهمية لحماية العشرات من الشبيبة المتطرفين دينياً والكثير من آبائهم وأمهم ورعاع الغوغائيين غربي الأطوار في " إسرائيل" (91)

ويقول " زيربورغ" في كتابه (ملكوت إسرائيل" أن أرض " إسرائيل" هي أرض موعودة، أرض بني " إسرائيل" الأرض التي يستحقها أولئك الذين اختاروا أن يكونوا شعب الله المختار، وأن يحققوا رغباتهم فيها (92).

ويضيف " يتوجب علينا تطهير أرضنا المقدسة من أي دنس وعيب، وعلينا توسيع حدودنا حتى الحدود الموعودة بل وأكثر، عندها ان فقط يحدث الهدوء والكمال والخير" (93).

89- يفتاحيل، أورن، الاثنوقراطية، رام الله، ط1، 2012، ص 138
90- ابراهام بورغ، لنتنصر على هتلر، رام الله، ط1، 2010، ص 283
91- نفس المصدر السابق، ص 283
92- نفس المصدر السابق، ص 285

ويضيف في موقع آخر من الكتاب " لن يكون ممكناً إنشاء ملكوت لليهود ما لم نعرف أن نكون أشراراً حقاً ونمنع حياة الآخر الذي يستحق ذلك، ونحذر من اعتماد وسائل وطرق سلمية بل طرد أي غريب غير يهودي من حدودنا بالقوة وأكثر من هذا خلال الحرب يتوجب علينا أن نكون أشراراً بحد أقصى، وهكذا في شأن الانتقام من الأغيار أيضاً" (94).

إن مثل هذه الأفكار العنصرية المنطلقة من الخطاب التوراتي هي من أوصت المجرم الإرهابي " باروخ غولدشتاين" بارتكاب مجزرتة الدموية في الحرم الابراهيم في الخليل سنة 1994، وأيضاً المستوطنين الذين أحرقوا الفتى الشهيد محمد أبو خضير، والمستوطن الذي أحرق عائلة دوابشة عام 2014.

ولا تقتصر هذه الأيديولوجيات على المتطرفين بل هي أيديولوجيا الدولة الرسمية حتى وإن تصدرت بغطاء علماني، ففي سفر " يشوع" سفر فإن نصوص الإبادة والقتل والمجازر هي المقررة في مدارس " إسرائيل"، أضف إلى ذلك أنه يستخدم لإعداد نفسي للجنود ولأفراد الجيش، وحينما وقع الاجتياح الصهيوني للبنان عام 1982 أعلنت هيئة التبشير الدينية العسكرية الحرب المقدسة، وكان الموضوع الرئيسي الذي طرحه الحاخام العسكري هو (يجب ألا ننسى الأصول التوراتية التي تبرر هذه الحرب، فوجودنا هنا بسببها، إننا نؤدي ونحن هنا واجب الانتماء الديني كيهود، إن الواجب الديني كما في تقاليدنا المقدسة هي احتلال الأرض (95).

أما على مستوى استغلال علم الآثار قامت بعثة أثرية عام 1955 بالتنقيب في وادي قرب الأرض لتحديد تواريخ احتلال أرض كنعان على يد " يشوع" (96)، وكان الهدف الرئيسي من تلك التنقيبات الكشف عن آثار ذلك الهدف وتحديد تاريخه بالاعتماد على معاينة البقايا الخزفية (97).

93- نفس المصدر السابق، ص 286

94- نفس المصدر السابق، ص 286

95- فلسطين أرض الرسالات السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 155

96- نفس المصدر السابق، ص 155

97- نفس المصدر السابق، ص 155

وقال بن غوريون للأثريين عام 1949 " نحن نعمل على تحديث ماضيينا وتأسيس امبراطوريتنا التاريخية في هذه الأرض (98).

أما على صعيد تسخير وسائل الإعلام للتأثير على الجماهير، فقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية في كانون الثاني عام 1982 بعد مذابح لبنان سلسلة من ثلاث طوابع بريدية لإحياء ذكرى يشوع، فالطابع الأول فيخصص لاحتلال الأردن ويعلق " فكس موند" كاتب المقالة بهذه المناسبة في تل أبيب قائلاً: " إن ذلك يذكرنا بالأسلوب الذي اتبعته القوات الإسرائيلية المعاصرة في سينا عام 1956 وفي ثلاث جهات أخرى عام 1967 وهو تجديد لأسلوب الأجداد منذ 3300 حينما أحاط العبرانيون بالمدن الكنعانية ليهاجموهم من الشرق" أما الطابع الثاني المخصص لاحتلال أريحا يذكر بالإبادة المقدسة لسكانها ما عدا العاهرات لأنهن استقبلن جواسيس العبرانيين وخبئن " يشوع"(99).

ثم يستطرد الكاتب قائلاً " إسرائيل اليوم تجابه قوة لا تقل خطورة عن كنعان في الماضي " (100).

أما " إسرائيل شاحاك" كان واحداً من عشرات المؤرخين والكتّاب والمثقفين الذين نددوا بممارسات " إسرائيل" التي تستند إلى الأيديولوجية التوراتية العنصرية، فقد شهد " شاحاك" حادثة محاولة اغتيال بسام الشكعة وكريم خلف عام 1980 وحالة التهليل على هذه الجريمة (101)، حيث كتب يقول " قامت مجموعة من النازيين اليهود بتجمع في حرم جامعة تل أبيب وقاموا بشواء بعض القطط وقدموا لحمها للمارة على أنها سيقان رؤساء البلدية التي تمت محاولة اغتيالهما (102) كانت هذه المجموعة النازية اليهودية مجموعة واحدة من بين مئات الألوف من اليهود المعبئين بالأيديولوجية

98- الاثنوقراطية، مصدر سبق ذكره، ص 140

99- فلسطين أرض الرسالات السماوية، مصدر سبق ذكره، ص 156

100- فكرة إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 101

101- نفس المصدر السابق، ص 102

102- نفس المصدر السابق، ص 204

التوراتية العنصرية الذي تم فيه الربط بين المستوطنات والمواقع التوراتية المنتشرة في الضفة الغربية ثم تقديس أرض " إسرائيل " كاملة باعتبارها الأرض الخالصة حصراً لهم (103).

وتعتبر حركة " غوش عوميم " الحركة الاستيطانية الدينية الأولى في الضفة الغربية التي نهلت من الفكر الديني القومي الصهيوني، تأسست الحركة عام 1974 واعتبرت أن احتلال الضفة عام 1967 كان معجزة ربانية وطريقاً نحو الخوص (104).

وحسب هذه الحركة وغيرها من التيارات ومن الأحزاب السياسية والدينية والتي باتت جزءاً أصيلاً من الاستعمار الكولونيالي الاستيطاني في السنوات الأخيرة فأرض " إسرائيل " بالنسبة لهم يجب أن تكون خالية تماماً من العرب (105).

ويتم وصف أحد الأنماط الشائعة للمجتمع الاستعماري الاستيطاني بأنه نمط " المستعمرة النقية " والتي تم اعتبارها أكثر الانماط شبيهاً بالحالة الإسرائيلية - الصهيونية . كما بينت دراسات أخرى فإن المجتمعات الاستيطانية " النقية "، تتسم عادة بسمة الاصطفاف العريض، وهذا الاصطفاف المدجج بأيديولوجيا دينية توراتية يتيح اتباع كافة أشكال الاستيطان لأراضي الشعب الفلسطيني وفي ظل الدعوات لطرد الشعب الفلسطيني في الداخل المحتل للإبقاء على الطابع اليهودي العرقي لما يسمى الدولة اليهودية (106).

هذه النداءات بطرد العرب جاءت في ظل الحديث عن القنبلة الديمغرافية التي تميل لصالح الفلسطينيين، وهو يندرج في إطار التهجير والإبادة كما جرى مع السكان الأصليين في الأمريكيتين الذين جرى ابادتهم والسيطرة على دولهم.

خاتمة:

103- الاثنوقراطية، مصدر سبق ذكره، ص 267

104- مهند مصطفى، مستوطنون من الهامش إلى المركز، مدار رام الله، ط1ن 2013، ص21.

105- الاثنوقراطية، مصدر سبق ذكره، ص 21

106- نفس المصدر السابق، ص 21

كنا قد عالجنا في هذا البحث عمق العلاقة بين " إسرائيل " والولايات المتحدة الأمريكية ارتباطاً بالمرجعية الدينية الذي شكّلت مرجعاً مهماً في ممارسات العنف والإبادة والتطهير العرقي لفكر الدولتين، ولا تنتسج هذه الدراسة لسرد وتفصيل ما قدمته الولايات المتحدة " لإسرائيل " على كافة الأصعدة على كافة الصعد السياسية والدولية والاقتصادية...الخ.

يكفي الإشارة إلى أن ما تلقته " إسرائيل " من مساعدات مالية من الولايات المتحدة منذ قيامها وحتى العام 2012 تقدر من الناحية الفعلية بحوالي 342 مليار دولار (107).

كما تعتبر " إسرائيل " أكبر متلقي للتمويل في أمريكا حيث تشكل منح التمويل العسكري الخارجي التي تحصل عليها " إسرائيل " سنوياً بين 18-22% من إجمالي الميزانية الدفاعية الإسرائيلية (108).

كما تخزن الولايات المتحدة صواريخ وآليات مدرعة وقذائف مدفعية في " إسرائيل " وهي أسلحة تستخدمها أمريكا وقت الحاجة، وبإمكان " إسرائيل " استخدامها بعد طلب اذن من أمريكا، وهذا ما حدث في حرب 2006. إذ سمحت أمريكا " لإسرائيل " بالاستيلاء على المخزون (109).

ونختتم هذا البحث بعبارتين وردتا على لسان اثنين من رؤساء الولايات المتحدة وهما يعتبران من الرؤساء المعتدلين قياساً بغيرهم من الرؤساء المعروف بتأييدهم المطلق " لإسرائيل "، العبارة الأولى تخص الرئيس الأمريكي " جيمي كارتر " حين قال مخاطباً أعضاء الكنيست عام 1979 " إننا نتقاسم وإياكم الأثر المشترك في التوراة " وهي عبارة تختصر ما ارتكبه الجيوش الأمريكية بحق الهنود الحمر وما ارتكبه العصابات الصهيونية بحق الفلسطينيين منذ النكبة وحتى اليوم، ارتباطاً بالمرجعية التوراتية التي شكّلت ملهماً لهذه الحروب الدموية.

107- ماجد كيالي، تحولات إسرائيل في العالم المتغير، منشورات مركز الأبحاث، م.ت.ف، ط1، 2013، ص 64
108- جيرمي شارب، المساعدات الخارجية الأمريكية لإسرائيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 2012، ص 18
109- نفس المصدر السابق، ص34

أما العبارة الثانية فتخص الرئيس الأمريكي " باراك أوباما" الذي صرح مخاطباً " إسرائيل " " ما دامت الولايات المتحدة موجودة فلست وحدكم وإسرائيل لن تزول أبداً". وهي عبارة تختصر الرابط العضوي الأيديولوجي والسياسي بين البلدين.

*السيرة الذاتية للكاتب كميل أبو حنيش:

- الكاتب الأسير كميل أبو حنيش حكم عليه بالمؤبد 9 مرات حيث يمضي متنقلاً في سجون الاحتلال منذ اعتقاله بتاريخ 2003/4/15.
- تعرض لعدة محاولات اغتيال منها تفجير سيارة مفخخة عام 2001، أصيب خلالها إصابة بليغة.
- هدمت قوات الاحتلال منزل عائلته واعتقلت أشقائه الثلاث، وجهت له تهمة تأسيس كتائب الشهيد أبو علي مصطفى وقيادتها، ومن بين التهم أيضاً المسؤولية عن عشرات العمليات الفدائية، وقتل 12 جندياً ومستوطناً إسرائيلياً ومئات الإصابات.
- حكم عليه بالسجن المؤبد تسع مرات بالإضافة الى 60 مليون شيقل ما يقارب 25 مليون دولار كتعويضات للمستوطنين.
- المناضل والأسير والأديب كميل أبو حنيش من مواليد نابلس عام 1975 حاصل على بكالوريوس بالاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة النجاح الوطنية.
- الكتابة والشعر هواية الأسير كميل منذ الصغر وتم تطوير هذه الهواية داخل السجون، حيث يقضي معظم وقته في السجن بالقراءة والكتابة ومساعدة الأسرى في كافة المجالات ويكمل دراسة الماجستير بالانتساب إلى جامعة القدس أبو ديس.
- كميل يشغل منصب مسؤول فرع الجبهة الشعبية داخل سجون الاحتلال وأحد قيادي الحركة الأسيرة.

- أولى تجاربه الروائية رواية (خبر عاجل) التي تحدث فيها عن تجربة حقيقية لاستشهادي فلسطيني وصدرت عام 2007 والرواية الثانية تحمل اسم (بشائر) الذي تحدث فيها عن تاريخ القضية الفلسطينية من عام 1917 وحتى يومنا هذا، وصدرت عام 2010 والرواية الثالثة تحمل عنوان (وجع بلا قرار) تتحدث عن عذابات الأسرى والمقاومة والحب وصدرت عام 2017 والرواية الرابعة تحمل اسم (الكبسولة) صدرت في جمهورية مصر العربية بداية هذا العام، وتتحدث عن الوطن والحب والعشق والغربة والتضحية والمقاومة.
- صدر له أيضاً كتاب يحمل (التجربة الاعتقالية والتنظيمية) هذا العام في قطاع غزة بالمشاركة مع القيادي الأسير في الجبهة الشعبية وائل الجاغوب.
- له مؤلفات تحت الطبع تحمل عنوان (جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي) و ديواني شعر الأول يحمل اسم (على شاكلة الفجر) والثاني يحمل اسم (مناخات ماطرة).
- له عشرات المقالات الأدبية والسياسية والقصائد الشعرية على الإنترنت.
- إن تجربة الكاتب الأسير كميل أبو حنيش الأدبية تجربة انسانية عميقة الأبعاد والدلالات، تؤكد لنا أن القضية الفلسطينية لن تموت أبداً، فثمة أبطال من رحم الموت سيولدون آلاف المرات رغم احتلال الظلام لمساحات النور.